الفصل الثاني عشر

شاغل سهام

أصبح شاغل سهام بعد تخرجها أن تجد لها زوجا. فهي إن لم تضع يدها على شاب محترم خلال خمسة أعوام فقد تبقى الى الأبـد عانـسا.. وكان هذا الخاطر يؤرقها ليل نهار.

لم تمض فترة طويلة حتى وجدت عملا كمدرسة في الثانوية الثانيـة حيث كانت حياة تعمل بدورها. وكانت من تلك الفئـة المحظوظـة مـن المتخرجات اللواتي وجدن شاغرا قبل أن يتضخم عدد المثقفات اللـواتي أغلقت أمامهن أبواب الوظائف.

وأخذت تقف أمام المرآة الساعات الطويلة تقوم بجرد دقيق لملامحها العادية التي أصرت على أن تجعلها تتوهج بجمـال صـناعي بـاهر.. واشترت كل ما يمكن أن يشترى من الأصباغ والعطور، وأنفقت رواتبها التي لم يكن أحد بحاجة اليها على الأثواب الجديدة والخائطات، تريـد أن تنتقم من شح والدها الذي كان يقتر على عائلته عن غير عـوز تقتيـرا شديدا.. فلقد حج سبع حجات ليغفر له الله ماغش وما طفف في الميـزان في بيع المواد الغذائية للناس. وكان طربوشه القديم قذرا حـائلا جعكـا وثيابه طافحة ببقع الدهن. وهي لاتريد أن تذكره أو يذكرها أحد به بعـد أن توفي، وترك ثروة محترمة لعائلته التي رفهت بها نفسها بعد مماتـه، فانتقلت الى فيلا جديدة على طريق المطار، واشترت الأثـاث الفـاخر، وأصبحت سهام تستطيع أن تستقبل في منزلها الأنيق أي وزير في الدولة دون أن تشعر بالحرج أو الخجل ان جاء يخطبها.

ولقد أدركت ببداهتها أن الفتاة في هذا العصر الذي يشكو أهله مـن أزمات الزواج، لايجب أن تنتظر كليلى قيسا يجن في غرامهـا، فلـيس

هناك عند شباب هذا الجيل تلك العواطف العميقة السابقة؛ زاغت أعـين الشباب أمام السفور والوجوه التي تتبارى في الجمال فحارت وضـاعت، ولا تكاد تحط على وجه جميل حتى ترى ما هو أجمل منـه، ولا قوامـا أهيف حتى تفاجأ بقوام أكثر هيفا، فان شاءت الاّ تبقى وحيدة فعليهـا أن تسعى هي الى الرجل ولا تنتظر سعيه نحوها.

وأتقنت فن تملق الرجل فما عرفها أحد الاّ وظن أنه وقع من نفـسها موقعا حسنا.. ومع هذا فان من يناسبونها وعندهم مـن المـسؤولية مـا يودون معه مخلصين أن يتخلصوا من عـزوبيتهم، ويتحملـوا تبعـات الزوجة والعائلة، كانوا من القلة بحيث أصبح عليهـا أن تحكـم حـولهم الشباك وتسد عليهم منافذ الهرب بكل ما تملك من قدرة على الغواية.

وكان أحدهم ضابطا وسيما مرشحا لتبوأ أعلـى المراتـب. يحـب الرقص واللهو ويكره القيود لولا أن أمه كانت تلح عليه بـالزواج حتـى لايستمرئ حياة المجون.. وتعلقت به سهام واشترت من أجله حملا مـن الأسطوانات الراقصة، وأخذت تداوم على مدرسة يونانية للرقص تأخـذ عنها أصول فنون تحريك قدميها وأردافها برشاقة.. ولكن الشاب سـرح في عهد الشيشكلي ففقدت اهتمامها به.. وكان الرجل الثاني مـن عائلـة متدينة ربي في جو متزمت، وكانت الطريقة الوحيدة التي يمكنه بهـا أن يرضي ما يكبت من عواطف جنسية، هو في أن يستكمل نـصف دينـه بالزواج على سنة الله. وكان الشاب لايعيبه شيء فهو طبيب ومن عائلـة تجارية ثرية وساذج، ولكنه متعنت في مظهر من ستكون زوجة له تمثله في المجتمع، فهو يريدها على أن تغطي شعرها بحجـاب شـرعي ولا تتبرج الاّ له.. ولم تكن مثل هذه التفاهات لتستحق أن تجعل سهام تستغني عن الشاب المثقف الغني فهي وسيلة وليست غاية، وسرعان ما مـسحت

الأصباغ عن وجهها، فبدت كأنها خارجة من مـأتم. وحبكـت شـعرها بمنديل ملون، ووقفت عند كتبي تسأله عن صحيح البخاري وكتب أخرى عن المرأة في الاسلام وخرجت من المكتبة تحمل طردا منهـا وتحـت إبطها قرآن مذهب ذو شروح كثيرة.

ولكن عائلة الشاب وجدت من الأنسب لها أن تزوجه من قريبة لـه، فيبقى المال في العائلة ولا يتسرب عن طريق الزواج من الأغراب.

وتركت سهام الكتب الفقهية في خزانتها جديدة لم تمسها يد، ولم تفتح أوراقها المتصلة بسكين.. وعادت الى تبرجها وهي تعزي نفسها بأن الله أنقذها من ذلك الأحمق الذي يسره أن يراها ذاوية شاحبة، ويعتبر القـبح رمز الأخلاق..

وكان الشاب الثالث الذي وقع في غرامها مثقفا ثوريا نـال اجـازة الحقوق. كان ثري العاطفة فقير الجيب. وشعرت للمرة الأولى حلاوة أن يكون الإنسان محبوبا وليس عاشقا.

وأصبحت ترتاد معـه دور الـسينما لتـشاهد الأفـلام الـسوفياتية والإشتراكية، وتترنم بالثناء على فرقة البلشوي تياتر، وتصفّ فـي رف خاص من خزانتها فوق الكتب الفقهية ترجمات لكتب لينين وماركس دون أن تتعب عينيها الحلوتين بقراءتها.

كانت تصغي الى آراء ذلك العاشق بافتتان بادئ الأمر، اذ أنه كـان يمنيها برحلة مجانية الى البلاد الاشتراكية، وكانت وهو يتحدث تنظر الى ذراعيه الأسمرين القويتين المشعرتين، وتبتسم موافقة مدركة مـن كـل حديثه أن حماس الشاب المتفوق، لابد وأن يصعد به سلم المجد سـريعا، وأن من مصلحتها أن تثب معه دون مشقة، بابتسامة حلوة وبهز الـرأس موافقة على كل ما يقول.. ماذا يريد الرجل أكثر من هذا من المرأة؟

ولكنها لم تلبث أن لاحظت بأنه يغمز منها بنقده الـلاذع، فهـي ان كانت تشتهي أن يزول من البلد كل الاقطاعيين والبرجوازيين الكبـار الاّ أنها لاتسمح أبدا أن يمسها بنقد صريح أو ضمني، فهي قد خرجت مـن صفوف الشعب البائس، وهي تريد أن يتساوى الناس وتصادر الأراضي وتؤمم المصانع على شرط أن لايقترب أحـد مـن حـدودها وينعتهـا بالبرجوازية الصغيرة. يجب أن تقف الاشتراكية عند هذا الحد!

ولما قال لها بـان الإشـتراكية لاتتحقـق بمجـرد مظاهرهـا، ولا بالشعارات، بل هي تقدم صناعي، جهد للتقدم، تضحيات من أجل التقدم، لأن التقدم لايكون بغير تحرير، والتحرير لايكون بدون تضحية، هـزت رأسها غير موافقة. فالتحرير هو شأن الدول الكبرى المتصارعة.. وهي ليست مستعدة أبدا للتقشف وهذا الكلام الفارغ، فالرغبة الإستهلاكية عندها هوجاء لاتعرف كبحا، ولم تفهم من التقدم الاّ أن تتقدم هي وتجلس فـي قيادة أحدث سيارة كما تفعل نساء، أزواجهن في الاتحـاد الاشـتراكي، وليس لديهن مزيتها من علم وثقافة.

قال لها المثقف الثوري:

- انك برجوازية، أعماقك برجوازية، أنت تتمنين شيئا واحـدا كمـا يفعل كل البرجوازيين الصغار، أن يحتلوا مكان الطبقات المنهارة.

ولكنها أصرت على أنها إشتراكية صـميمة، وأنهـا خرجـت مـن صفوف الشعب البائس.. ولما نبهها الى أنها تأخذ ولا تعطي حتـى فـي عملها الذي تؤجر عليه غضبت وقالت:

- أنا لاأتهاون!

كان قد بلغه أن لها هواية حياكة الصوف أثناء الدروس، وأن طالبـة رسبت في صفها لما أجهدتها به من حياكة لها تريد بذلك أن تحصل على

رضاها بعلامات أفضل. فتهاونت في دروسها الأخرى لتسهر الليالي في الحياكة.. كان الشاب مستاءا لهذا الإستغلال، ولكنه لم يستطع أن يـردع سهام أو يجعلها تشعر بالذنب، لكأنما ذلك حقها فمن علمك حرفا صـرت له عبدا.. ماذا في ذلك؟ وبدأت تشكو بدورها ماتعاني من إرهـاق فـي تدريس طالبات بليدات، وأنها تصاب ببحة الصوت مرات عديـدة أثنـاء العام الدراسي، فابتسم الشاب وقال:

- لايبدو عليك الإرهاق، أنت دائما نضرة يانعة.

وضاقت نفسها بمحاولاته ليخلقها من جديد.

- أنت لاتستريح حتى ترى وجهي يتجعد بـشيخوخة مبكـرة مـن الإرهاق. هذه إشتراكيتك، لكأنما الانسان لايعيش الاّ من أجل أن يكدح..

ويذكرها بأناس غير محظوظين يتعبون أضعاف ما تتعب ولا ينالون ربع ما تنال من أجر، فتثور مغضبة:

- جهد العقل أشرف، أم ليس له قيمة عندك؟

كان حبه لها يأخذ شكل الحصار، والرغبة فـي التـشذيب، والنقـد الجارح حتى توافق صورة الكمال في ذهنه عن المرأة، فأصبح يزعجها بما يحطّ من قدرها، وما يجد من خلل في سـلوكها. انهـا عالـة علـى المجتمع، طفيلية، تحمل شهادة لايعلم الاّ الله كيف حصلت عليها، وتشحذ بها كل العمر. ولا تقوم بجهد، وعملها دجل، وحياتها كسل. وهي ليست وحدها في ذلك.. فالمدارس أصبحت أماكن يختبر فيها موظفـو التربيـة جهد البيت وينسقون له العلامات. وينصحها أن تختار لها مجـالا غيـر تربية النشء وتعليمه، لأنها مهمة حساسة في المجتمع. وحين يبلغ بهـا الضجر مداه من هذا الحديث ينفض يديه منها ويقول:

- رواسبك عميقة الجذور، أنت عسيرة على الاصلاح!..

وتهز سهام كتفيها دون مبالاة وتضحك.. ان هذا النوع من الرجـال صعب على الفهم، لايمكن إرضاؤه بحال من الأحـوال، وتجـره معهـا للتفتيش في الأسواق عن مخلفات البرجوازية المهاجرة من التحف التـي تباع بأثمان زهيدة، فتراكم بها حجرات منزلها وهي تفكر بما يكون عليه حالها مع ذلك الشاب المستاء الرافض لمجتمعه لأنه لايحظى فيه بمكـان يرضي طموحه؛ وتعلل النفس بان أخلاقه ستتحسن في اليوم الذي يصطاد فيه مركزا مرموقا يتربع فيه فيتخلى عن كثير من مبادئه الثورية..

انه ليس الزوج المنشود، ولا هو فارس الأحلام، ولكن القناعة غنى، ومن هو في اليد خير ممن هو على الشجرة. ولكن لسوء حظها أو حسنه طار الزوج المرتجى الى خارج البلاد خوفا من القفص الذي أخذ يكبـر ويحشر فيه الحر الى جانب اللص والجاسوس.. وسهام لاتؤمن بفـضيلة الإنتظار..

ان أفضل ماتفعله الآن هو أن تنتسب هـي نفـسها الـى الإتحـاد الإشتراكي فتصطاد من هناك رجلا له مستقبل فما حاجتها الـى رجـل ملاحق ذي عقلية يابسة؟

وما لبثت أن ظفرت بالرجل الذي فصل لها.. ان حظها تعثـر فـي الماضي ليعرسها الى مجد هو أزهى وأبهى من كل ما قـدرت.. التقـت يوما بعبد الوهاب وقد أصبح عقيدا بعد الترقيات الأخيرة ، وأحس كـل منهما بما يجذبه نحو الآخر بقوة وعنف..

اكتشفت سهام بعد حفل الزواج الذي أقيم في نادي الضباط أن رجلها يؤمن بالقومية العربية!

ونحن نخطئ لو نظن أن كل من انحاز الى اتجاه هو شبيه بكل مـن انحاز اليه.. فالدين والقومية والإشتراكية مفاهيم مجردة لا يمكن لهـا أن

تتجاوز ثقافة الإنسان وأخلاقيته ومصلحته وأنانيته.. فنرى من البون بين الجماعة الواحدة ما يزيد في اتساعه عن البون بين الفئة والأخرى..

وعلى عادة سهام في فهم الأمور، شعرت أن من واجبها أن تمثل العروبة على أحسن وجه، فصبغت شعرها بسواد حالك، ووسعت عينيها بالكحل والظلال، وفي منزلها الجديد أفردت غرفة أثثتها على النمط العربي: المفارش والسجاجيد والصواني المذهبة والسيوف والثريات العربية، وعلقت صورا من الفولكلور العربي لرسام ناشئ، وترنمت بأشعار إبن أبي ربيعة وأبي نواس وابن زيدون؛ وكانت تهتز نشوة لسماع تقاسيم العود أو الموشحات الأندلسية.. وصعدت من اهتمامها بالتاريخ، وكانت تصر على أن صلاح الدين الأيوبي عربي، وأن كل من تنافسها جمالا هي شعوبية، خصوصا ان كانت شقراء شهلة العينين، حتى لو كانت الشقرة اصطناعية، فمثل هؤلاء النساء يشكلن خطرا على سمرتها، ولا بد من إقصائهن عن مجد العروبة.

شعرت سهام أنها في بيتها، وفي الصدر منه.. لقد فصلت القومية العربية لها.. أين كانت غافلة طوال الزمن الماضي، انها حفيدة أولئك الشجعان الكرماء الأماجد الذين بنوا حضارة رائعة، دمهم يسري فيها.. انها تحمل ايمانا جديدا، ايمانا رائعا، ايمانا يزيد حياتها خصبا.. وكان حماسها في تمجيد رائد القومية يزيد بقدر ما كان يصعد زوجها في مدارج الرقي وتوكل اليه المهمات، وبقدر ما كانت هي تستمتع بمرافقته الى الحفلات ودور السفارات..

مثلت سهام وجودها أحسن تمثيل.. كانت تسبح في الأضواء، وتذوب للإطراء، وتنسج حولها هالة فاتنة تجعلها زينة تلك المجالس التي لايعنيها من المرأة الاّ المظهر الخلوب.

كان الله يرعاها فجنبها من عرفت قبل من الرجال، ذلك يريد أن يحد من حريتها لتخلد الى البيت وتربية من ستنجب من أطفال، والآخر الذي يريد أن يحدد رزقها، وأخيرا ذلك البغيض الذي يعدها للضياع..

أصبحت تحمل ايمانا جديدا، ايمانا رائعا يزيـدها غنـى كلمـا زاد حماسها في تمجيد القومية العربية ورائدها.. أصبحت تصادق المصريات ممن تدفّقن الى دمشق من نساء الضباط، وتعلمت حتى لهجتهن مزاحـا حتى أصبح طابعا لحديثها فيظنها السامع بنت مصر من طفولتها.

ولكن جاء يوم بدأت فيه الأضواء تخفت، والحلاوة تشوبها المـرارة والآمال الكبار تتحول الى سراب.. وحين كانت الأزمة في أشدها، أزمة تهدد القومية العربية، تعلّقت بعنق زوجها والدموع تخنقها أن يتوارى ولا يتحمس كثيرا، ويترك الحرب لمن هو أهل لها من الحمقى والمجانين!

إنها رقيقة القلب لا تحب العنف ولا يمكنها أن تـشاهد معركـة، أو تسمع بها.. وأصبحت تنتقد الفدائيين في كل مجلس، أولئك الذين يدفعون ضريبة الدم "انهم يبالغون، انهم يستفزون علينا دول العالم، وما يفعلونـه ليس فيه بطولة.. يورطوننا! نحن لا قبل لنا على الحرب، يتعلم الفرد فينا سنوات كي ينال شهادته فيلقون به في الجبهة.. الحرب هدر للثقافة، هدر للمال، هدر للبشر.. ليس في الدنيا حقيقة غير السلام.. علينا أن نحرص على السلام الذي يهدده المخربون..

ومزقت راية القومية ورفعت راية بيضاء!